

# قِصَائِدُ الْوَجْدِ وَالْهُيَامِ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ رَحْلَةُ الْحَجِّ أَنْمُودَجًا

آمال موسى  
جامعة عمر المختار - ليبيا

## الملخص:

إن لأدب الرحلات مكانة عالية وذلك لما يحتوي عليه من فوائد يندر اجتماعها في موضع آخر؛ ومهما تنوعت الرحلات واختلفت؛ فإنَّ أعظم رحلة يقوم بها مسلم هي تلك الرحلة التي تسبق مشاعره فيها جوارحه، وترنو إليها روحه سابقاً جسده، ولا تجتمع هذه الصفات إلاً لقاصدي المعاهد الطاهرة، وتعدُّ نصوص الرحلة إلى البلد الحرام من النصوص التي ظهرت معبرة عن العشق والوجد عند الأدباء الذين جعلوا للأماكن المقدَّسة مكاناً مهماً في حياتهم، وقد امتازت هذه النصوص الشعرية الشريفة- بشرف موضوعاتها وأغراضها- بالصدق والشفافية، وذكر الكثير من المشاعر الكريمة، ووصفها وصفاً دقيقاً، وصفاً يشتمل على صور شتى للحلِّ والتَّرحال وإبداء الوجد والهيام على طريقة أهل التصوف في حبِّهم وتشوقهم للأماكن المقدسة ولساكنها عليه أفضل الصلاة والسلام.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، الوجد والهيام، الأماكن المقدسة.

## Résumé

La littérature de voyage jouit d'un statut élevé en raison des bienfaits qu'elle contient, rarement trouvés ailleurs. Peu importe la diversité et la variété des voyages ; Le plus grand voyage qu'un être humain puisse entreprendre est celui dans lequel ses sentiments précèdent ses sens, et son âme y aspire avant son corps. Ces qualités ne sont rencontrées que par ceux qui fréquentent les instituts purs, Les textes du voyage vers la Terre Interdite font partie des textes parus exprimant l'amour et

**l'affection des écrivains qui ont fait des lieux saints une place importante dans leur vie, Ces nobles textes poétiques se distinguaient Avec honnêteté et transparence, Il l'a décrit avec précision, une description qui comprend diverses images de solitude, de voyage et d'expression d'affection et de passion à la manière des gens du soufisme dans leur amour et leur désir des lieux saints et de leurs habitants. Que les meilleures prières et la paix soient sur lui.**

**Mots-clés : Littérature de voyage- Passion et passion- Lieux saints**

## المقدّمة

إن أدب الرحلات من الفنون الأدبية التي شاعت لدى العرب منذ القديم، وهو فن له خصائصه التي تميزه عن غيره، بل إنه كما يقول شوقي ضيف: خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، والمقصود بها قصوره في فن القصة، ومن غير شك فإن من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص<sup>1</sup>. ولقد كانت الرحلات ومازالت مصدراً ثرياً من مصادر المعرفة، والاطلاع على أحوال المجتمعات وثقافتها، فالرحالة وهو يطوي الأرض يسجل مشاهداته لمختلف جوانب الحياة. ويذكر أحد الباحثين قيمتين عظيمتين للرحلات، إحداهما: علمية تتحقق من خلال ما تحتويه معظم الرحلات من معارف تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية، والأخرى: قيمة أدبية وتشويقية تتجلى في الأسلوب الأدبي الذي تكتب به تلك الرحلات ومستويات الخيال الفني فيها، ويستمد هذا الموضوع أهميته من أهمية المكان المرتبط به عند ذكرنا لأدب الرحلة، وهو الديار المقدسة، الذي ارتبط به أدب الرحلة بوجه عام، وأمدّه بمادة علمية ضخمة، كما ارتبطت به قصائد الوجد والهيام بالأماكن المقدسة والتعلق بها. ومن أسباب اختيار موضوع الوجد والهيام بالبلد الحرام الآتي:

- 1- إن مما أغرى الباحث ودفعه إلى الكتابة في هذا الموضوع الوقوف على قدر مهم من شعر الشعراء الذين كانت لهم تجارب شعرية مهمة في الرحلة إلى البقاع المقدسة، والتي بها انتقل الشعراء من مرحلة التقليد والمحاكاة إلى مرحلة الإبداع والابتكار، ويعد الباحث شعر الرحلة إلى بلاد الحرمين مظهراً من مظاهر التجديد.
- 2- لم ينل أدب الرحلة إلى الأماكن المقدسة عناية الباحثين إلا قدرًا قليلاً، مما ترتب على ذلك فراغ المكتبة الأدبية من دراسة علمية تتناول شعر الرحلة إلى الديار المقدسة، وتزُود ملامحه، وما تمخّض عنه من إبداعات، ظلت حتى هذا الزمن المتأخر تحمل روح الشعر الرفيع وأصالة الشعراء المتمكنين، وأراد البحث بهذه الدراسة أن يسد فراغاً - ولو بقسط ضئيل - في المكتبة الأدبية، فعدم الاهتمام بأدب الزيارة إلى بلاد الحرمين يؤدي إلى بتر الوشائج بين الأجيال الحاضرة وتراثها الأدبي والفكري والثقافي العظيم. أما المنهج الذي سوف يتم السير عليه في هكذا دراسة، فهو مزيج من مناهج عدة، مختلفة ومناسبة لمقاماتها في الدراسة، كالمنهج

<sup>1</sup> .الرحلات، دار المعارف، مصر، ط4، ص6.

التحليلي الذي سيتم توظيفه في دراسة النصوص وتحليلها، وكالمنهج التاريخي الذي سيوظف في سرد مساهمات العلماء والأدباء في أدب الرحلة، وكذلك المنهج الوصفي ويتمثل في تقديم النصوص، ومحاولة النفاذ إلى ما تشتمل عليه من موضوعات وأفكار.

### الرحلة:

إن الارتحال هو انتقال من عالم تسوده الرتابة إلى عوالم تحفل بالحيوية والدهشة، وحين يعترك في مكانك السأم ترحل إلى أمكنة لم ترها من قبل، أو بُعد عهدك بها، لتجلو بصرك بمشاهد جديدة، وتتسّم هواءً يبعث فيك الألق، وتتعرف إلى أناس يفتحون لك آفاقاً واسعة على الكون، بعدها تعود إلى دنياك الأولى، وتضع رحال السفر؛ لتشدّها إلى رحلة أخرى في مسيرة الحياة<sup>2</sup>. ويعد النص الرحلي نوعاً من أنواع الأدب القديم، الذي عُرف في الماضي بين الرحالة العرب لاكتشاف أراضٍ جديدة لم تكن معروفة في السابق، وقد تعددت تسميات هذا اللون من الأدب، فمنهم من سماه (بأدب الرحلة) ضمن تسمية تدعو إلى تجنيس هذا النص ضمن المنظومة الأدبية السردية؛ ليكون مصدراً للمؤرخ والجغرافي والأديب، وهناك من أطلق عليه (الرحلة) فقط، ولكن يفضل آخرون أن يسميه (النص الرحلي)؛ لأنه نص لغوي قائم بعناصره، وهو نص مفتوح، وبه خطابات متعددة، مما يدعو بالضرورة إلى فهمه في تعدّيته من خلال النصوص. والرحالة نوعان: رحالة أديب، ورحالة ليس بأديب، فهناك من الرحالة الذين جابوا الدول وتعايشوا مع الشعوب دون أن يسجلوا ما رأوه، فظلت رحلاتهم حبيسة في صدورهم، ومنهم من روى مشاهداتهم سماعياً إلى من لقوهم في بلدانهم حين عادوا، وهؤلاء وُئدت تجربتهم بوقاتهم، وبوفاة من سمعوا منهم؛ لذا تعد كتب مدونات الرحلات وثيقة مهمة في وصف المجتمعات المختلفة التي زارها الرحالة من جهة، ومعبرة عن ثقافة المحكي لهم من أهل الكاتب ومجتمعه من جهة أخرى<sup>3</sup>، وقد شهد القرن السادس الهجري وما تلاه من قرون اهتماماً ملحوظاً بأدب الرحلة، والذي احتوى على إبراز شيء من قصص الرحلات التي ألّفها الرحالة العرب، والذين كانوا

<sup>2</sup> . السيد: السيد رمضان، "وصف الرحلة. إبداعات شعرية خلّدتها الدواوين"، مقال منشور في

مجلة "البيان"، 2018م، على موقع: <https://www.albayan.ae>

<sup>3</sup> . حليفي: شعيب، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002، ص39.

يسافرون من الجزيرة العربية لاكتشاف المناطق المحيطة بهم، أو الذين كانوا يسافرون من بلاد شمال إفريقيا، والأندلس إلى الجزيرة العربية بهدف الحج، والتعرف على الحضارة العربية الموجودة في تلك المنطقة<sup>4</sup>، وقد رصد الخواجي مجموعة من الرحلات في القرنين السابع والثامن الهجريين ومن أشهر أولئك الرحالة: ابن جبير الأندلسي، وكانت له ثلاث رحلات إلى المشرق آخرها كان في سنة (601هـ) حيث رحل للحجاز طلباً للراحة والسلوان. وفي ذلك يقول:

بسببة لى سكن فى الثرى وخذل كريم إليها أتى  
فلو أستطيع ركبْتُ الهوى فزرتُ بها الحى والميتا

ومنهم الرعيني الإشبيلي وابن رشيد السبتي والعبدي والتجبيبي والوادي آشي، وابن بطوطة والبلوي. وقد نشأ عندهم عن هذه الرحلات شعر الرحلة إلى مكة والمدينة على نحو قول ابن عساكر الدمشقي:

يا جيرتي بين الحجون الى الصفا شوقي إليكم مجملٌ ومفصلٌ  
وقد اشتهر الإدريسي، والمسعودي، وپروى أن ابن بطوطة أمضى في رحلته أكثر من 28 سنة، من حياته ينتقل في أجزاء العالم المعروف حينها، حتى قطع ما لا يقل عن مئة وعشرون ألفاً من الكيلومترات، يدون ويرصد غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ولا غرابة أنه استحق لقب شيخ الرحالين المسلمين على الإطلاق. ومنهم ابن فضلان الذي كتب أقدم وصف للأمم الروس والترک والخزر والصفالباة في رحلته الشهيرة. كما وضع البيروني أسس علم الأنثروبولوجيا في كتابه الذي دَوّن فيه رحلاته للهند، حيث كان فيه عميقاً محلاً لطباع الإنسان الهندي، وعاداته وتقاليدده في كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة".

ومنهم ابن جبير الذي قدم أوصافاً دقيقة لأحوال بلاد العالم الإسلامي في كتابه "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار".

فهؤلاء يعدون من أشهر الرحالة الذين اهتموا بتوثيق رحلاتهم، وكتابة القصص التي حصلت معهم في الأماكن التي ذهبوا إليها، ومنهم من اهتم بجغرافية تلك الأماكن فعمل على رسم الخرائط التي تقدم وصفاً للتضاريس

<sup>4</sup> . العساف: أحمد، "رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين"، مقال منشور في

مجلة "البيان" العدد: 280، 2010م، على موقع: <https://www.albayan.co.uk>.

الجغرافية التي تعرّفوا إليها<sup>5</sup>. وتجدر الإشارة هنا إلى أن رحلة أداء مناسك الحج كانت في الغالب هي الحافز الأول الذي يدفع ذلك الرحالة أو المؤرخ أو الأديب كي يدون رحلاته، ويتوسع في ذلك الفن، وهذا ما ذكره ابن بطوطة في مطلع كتابه عن أول رحلة له<sup>6</sup>، والأمر نفسه عند ابن جبير، حيث كان مبتدأ رحلته أنه خرج قاصداً للحج، ولذلك ألف كتاب بعنوان "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك". كما شهد القرن الحادي عشر للهجرة العديد من قصص الرحلات التي تمكّن فيها الرحالة العرب من الوصول إلى الكثير من المناطق، والتي لم يكتشفها أي أحدٍ من قبلهم، وأيضاً احتوى على مجموعةٍ من الرحلات التي توثق للعديد من الأحداث التاريخية المهمة، ومن أهمها رحلة (أحمد الحجري) المعروف باسم (أفوقاي)، والذي هرب من الأندلس بعد سقوطها، وقام بتوثيق ما حدث في محاكم التفتيش، والعديد من المشاهدات الأخرى التي جمعها في كتابه حول هذه الرحلة، فرحلة (أفوقاي الموريسكي) إلى الحج خلال القرن السابع عشر تختزل أمة في رجل ما كنا سنعرفه لولا تدوينه للرحلة. ومن أشهر المؤلفين في العصر الحديث محمد ناصر العبودي وله عديد الكتب في أدب الرحلات، وأنيس منصور صاحب كتاب "حول العالم في مئتي يوم"، ومحمد عفيفي في "تائه في لندن" ويوسف القعيد صاحب كتاب "مفاكهة الخلان في رحلة اليابان"، ومحمد المخزنجي الذي ألف كتاب "جنوباً وشرقاً رحلات ورؤى"، ولكن مع هذه الكتب والرحلات بدأ أدب الرحلة يغيبُ بشكلٍ ملحوظٍ عن الساحة الأدبية العربية، ولعلّ ذلك بسبب ظهور العديد من وسائل السفر الحديثة، والأجهزة التي تساعد على اكتشاف كثير من المناطق والبرامج التي تغطي عادات الشعوب خلال وقتٍ قصيرٍ مقارنةً بالماضي الذي كان يحتاج فيه الرحالة إلى شهورٍ وسنواتٍ حتى تنتهي رحلته، وهكذا أدّى التطور التكنولوجي والمعلوماتي إلى اختفاء جزئيٍّ للأدب الرحلي، على الرغم من أن هناك جائزة عربية ربما لم تسلط عليها الأضواء كثيراً تم تخصيصها لأدب الرحلات،

<sup>5</sup> . الشعر في مكة المكرمة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 2002م، ص347.

<sup>6</sup> . رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، دار الشرق العربي، ج1، ص3.

وحملت اسم كاتبه الأول، وهي جائزة (ابن بطوطة) لأدب الرحلات<sup>7</sup>. ونجد في كتب الرحلات عناية بالشؤون الدينية الخاصة بطريق الرحلة، وبالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية؛ لقاطني الديار التي يمرُّ بها الرحالة، وفيها انتقال بالغرائب والعجائب، وحرص على ملاقات من يستحق اللقاء من العلماء والأدباء، وإمام بتاريخ المدن وأسماء البلدان وأخبارها، إضافةً إلى أن طابعها يتسم بالإمتاع والمؤانسة. ويعد النص الرحلي وثيقةً تاريخيةً وجغرافيةً واجتماعيةً وسياسيةً تفصح عن معلومات ومضامين وقيم، فيبحث فيها المؤرخ عن تاريخ البلدان وأخبارها، ويبحث فيها الجغرافي عن أحوال هذه البلدان وتضاريسها، ويُقَبِّ فيها السوسولوجي عن نشأة الظواهر الاجتماعية وتطورها، بينما هي بالنسبة للناقد الأدبي "نص أدبي"، وإن كان عصياً على التجنيس، فهو يملك من المقومات الأدبية ما يجعله يحتل موقعاً مستحقاً في الدراسات الأدبية، ولعل هذا ما جعل النقاد يلحون به كلمة أدب، فيقولون: أدب الرحلة أو أدب الرحلات، والذي يتضمن ثلاثة أطراف من أقسام الخطاب الرحلي، وهم: الحاكي: وهو المؤلف الرحالة، والمحكي عنه: السفر، والمحكي: الخطاب الرحلي، ويتكون الخطاب الرحلي من: المعرفة: وهو ما يشاهد في النص من المعارف المتنوعة والجوانب الجغرافية والأدبية والاجتماعية والتاريخية والدينية مما يجعل هذا الأدب قبلة للعديد من الباحثين مختلفي المشارب. والسرد: الذي يبدأ من بداية الرحلة ويستمر الى نهايتها. والوصف: ويأتي بعد السرد، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن<sup>8</sup>، وبعبارة أخرى يتم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان، ويتم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشياء أو الأشخاص. والشعر: حيث نجد أن كثيراً من الرحلات تحتوي على الأشعار مختلفة المضامين، ومتفاوتة القيمة الفنية، وهذه الأشعار إما من إبداع الرحالة أو من إبداع غيره. والرحالة وهو يحلي رحلته بالشعر إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالية التي يحتلها الشعر في الثقافة العربية، ولعل الرحالة وهو يورد هذه الأشعار بين الفينة والأخرى يسعى

<sup>7</sup> . وهي جائزة يمنحها "المركز العربي للأدب الجغرافي، ارتياد الآفاق" المختصة بالكتابة الأدبية عن السفر سواء أكان عن تجربة شخصية أم ترجمة أم كشفًا عن مخطوطة عربية نادرة. ينظر: الحديدي: محمود، "النص الرحلي"، نافذة الملمهين، 2019م، على موقع:

<https://www.facebook.com/photo.php>

<sup>8</sup> . الحجري: إبراهيم، الخطاب والمعرفة؛ الرحلة من منظور السرديات الإثنوبولوجية، المركز الثقافي العربي، 2018م، ص32.

إلى إمتاع القارئ بهذا الخطاب الشعري الجميل، وإلى رفع قيمة رحلته باحتوائها عدداً وافراً من الأشعار التي توظف في سياقات مختلفة<sup>9</sup>.

**الحج في أدب الرحلات:**

لقد حظي موضوع الحج في أدب الرحلات عبر تاريخه بقدر كبير من التوثيق عند الأدباء والعلماء والمتقنين الذي أدوا الفريضة، ويرجع التأليف في هذا الباب إلى القرن السادس الهجري، وقد اشتغل الأدباء به أكثر من العلماء؛ لأنَّ الأدباء يتوسعون في العبارة، ويكتبون عن الحادثة الواحدة صفحاتٍ طويلةٍ ممتعة؛ بسبب ما حباهم الله من أدب الدرس والقدرة على تشويق الكلام وإجادة الوصف، ويقرر الدكتور الخواجي بأنه: لم يشهد قطر من الأقطار رحلات عدة كما شهدتها مكة المكرمة والمدينة المنورة لدافعين أساسيين لتلك الرحلات، الأول منهما: أداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة، والثاني: طلب العلم من منابعه الأصلية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، والالتقاء بالعلماء من مختلف البقاع<sup>10</sup>، ولا جدل في أن موضوع رحلة الحج في كتابات وعيون الرحّالة والمؤرخين واسع ومتعدد الجوانب، وكانت تجربة الحج - وما زالت - تريباقاً ناجعاً لمن أتعبهم البحث عن ماء المعنى في صحراء العدم، فقد روى لنا التاريخ عن أعداد غفيرة من المفكرين والفلاسفة والأدباء الذين وجدوا في هذه الشعيرة معنى لأمس شغاف قلوبهم، وحرّك جذوة التي كادت أن تنطفئ<sup>11</sup>، ولقد برز علماء المغرب والأندلس على غيرهم في تدوين الرحلات، ومن يطالع كتب الأندلسيين كـ "نفخ الطيب" للمقري و"فهرست الأشبيلي" وغيرهما من الكتب يجد أن كثيراً من العلماء الذين رحلوا إلى مكة والمدينة كانوا رسل علم وحملة ثقافة ودعاة معرفة، حتى أثر عن بعضهم كتب دونت ما كان يطرح فيها من مسائل العلم وقضايا الأدب والنقد واللغة. وتقاطر كذلك الرحالة المستشرقون إلى المنطقة العربية بدايةً من القرن الخامس عشر الميلادي، وكان لديهم اهتمام وشغف بزيارة مكة المكرمة وبالأخص المشاعر المقدسة ومعايشة رحلة الحج، وقد اهتمت الدول الاستعمارية الكبرى منذ فترات

<sup>9</sup> . قادا: عبدالعالي، "الإقناع بالعواطف في الرحلة الكولونيلية"، مقال منشور في مجلة جيل

الدراسات الأدبية والفكرية، ع 70 ، ص 25، على: <https://jilrc.com>

<sup>10</sup> . الشعر في مكة المكرمة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين، ص342.

<sup>11</sup> . ينظر: عاشور: مصطفى، "الحج في أدب الرحلات"، مقال منشور على موقع إسلام ويب،

<https://islamonline.net>



مبكرة بإرسال بعض المغامرين من الرجال لتلك الديار للاطلاع على أحوال الحج كرمز من رموز وحدة المسلمين وتجمعهم وطبيعة البلاد والعباد فيها<sup>12</sup>.

إن أدب رحلة الحج سفرٌ غنيٌ يحكي مكة المكرمة والمدينة المنورة والطريق إليهما ومنهما، فالطريق إلى مكة من أي بقعة في العالم يأخذ طابعاً روحياً يبدأ من بداية الرحلة ولا ينتهي بالوصول إلى المشاعر المقدسة، حيث يسافر خيال الحاج عبر العصور راسماً شخصيات وأحداثاً شهدتها مشارف الكعبة عبر العصور، ويمثل أدب الحج وثائق روحية وتاريخية في غاية الأهمية؛ لما اشتملت عليه من وصف دقيق للمسجد الحرام والمسافات بينه وباقي المشاعر المكرمة والمقدسة<sup>13</sup>.

### قصائد الرحلة إلى الديار المقدسة:

وقبل الخوض في الحديث عن أشعار زيارة الأراضي المقدسة، لابد من تحديد معنى مفهومي " الوجدُ والهيام"، للوقوف على مدى ملازمة معنييهما لقصائد الزيارة وأداء النُسك. فالوجدُ: الحُبُّ، ووَجِدَ بِشَخْصٍ: أَحَبَّهُ حُبًّا شَدِيدًا، والوجدُ: ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلفٍ وتصنع، وقالوا: هو سمع القلوب وبصرها. والوجدُ: لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق، فتضطرب به الجوارح طرباً أو حزناً عند ذلك الوارد. والهيامُ: الجنون من العشق، أي شدة الشغف بمن يحب<sup>14</sup>.

وهنا لابد من التفريق بين " الوجد والهيام" و" الشوق والحنين". فالشوقُ لغة: نزاعُ النفس إلى الشيء والجمع أشواق، والشوقُ: حركة الهوى والشوق: العُشاق، ويقال: شاقني الشيءُ يشوقني فهو شائقٌ وأنا مشوقٌ، أي يفهم منه: أنه شد النفس إلى أمر محبوب ولازم بها، فيتمنى الشخص التعجيل به والوصول إليه بأيسر الطرق وأسرعها، والشوق للمكان: يعني الارتباط به والتعلق بحيثياته. أما الحنين " فمعناه من قولهم: حنَّ إليه يحنُّ حنيناً فهو حانٌّ، والاستحْنانُ: الاستطرابُ، وحنَّت الإبلُ: نَزَعَتْ إلى أوطانها أو أولادها<sup>15</sup>. والفرق بين قصائد الوجد وعشق

12 . الهدوي: علاء الدين محمد، " الحج في أدب الرحلات ومكانته في خارطة البحث العلمي"،

دراسة منشورة 2021م، على موقع البعث الإسلامي، <https://albasulislami.com>.

13 . أبجيط: سعيد، " رحلة المغاربة إلى الحج"، مقال منشور في: 2019م، على موقع:

<https://makkawi.info>

14 . ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة

وَجَدَ " و " هَيْمَ".

15 . ابن منظور، المصدر نفسه، مادة " شَوْقٌ " و " حَنَّ ".

الأراضي المقدسة وبين الشوق والحنين لها: أن الأولى قالها من تمكن من الحج وزيارة المعاهد الطاهرة، أما الثانية: فهي قصائد لشعراء لم يستطيعوا الرحلة إلى تلك البقاع؛ لعجزهم عن ذلك، فنظموا قصائد الشوق والحنين. وتعدّ قصائد الوجد والهيام قصائد شبيهة بشعر شعراء الحجاز الغزليين من حيث رقتها وصدقها، ومن حيث قيامها عادةً على ذكر أعلام جغرافية حجازية بعينها في الحل والترحال كذي سلم والعقيق والبيت، ويذكرون النسيم والصبا والسراب، أما موضوعها وسببها فهو عشق الأماكن المقدسة، وقضاء فريضة الحج، وهما - أي الموضوع والسبب - غير موضوع وسبب إنشاء وإنشاد قصائد الغزليين، فالأديب من خلال أدبه كان يخلق عالماً خاصاً به حيث يرسم مشاهد الزيارة انطلاقاً من إبداء الوجد والهيام بعظمة المكان وقداسته، ثم القيام بالرحلة إلى البلد الحرام والتطواف به والتبرك بملمسه، وإشباع العين بالنظر إليه، وانتشاء الروح برائحته، وإرواء المشاعر من روحانيته، ومحادثة شخص النبي بالتوسل والتقرب، وهذا ما تعكسه مجمل العواطف المشخصة في خطاب الوجد والهيام في أدب رحلة الحج. وقد امتاز هذا الغرض بالصدق والشفافية، وذكر الكثير من المشاعر الكريمة ووصفها وصفاً دقيقاً يشتمل على صور شتى للحلّ والترحال وإبداء الوجد والهيام، وذكر الحب على طريقة أهل التصوف. وكان الأديب في ذلك متأملين ومتضرعين مبتهلين، شاكين مادحين، مصلين مسلمين على صفي الله وحبيبه - صلى الله عليه وسلم - وكان الشعراء في هذه الأحوال الروحية سواسية، ولكنهم كانوا متفاوتين في الأحوال الفنية كتفاوتهم في قدراتهم الشعرية. أما النصوص التي بها شوق وحنين فهي تمثل توق الأديب لزيارة البقاع المقدسة، وتبرز مكانها في قلبه، ولارتباط هذا الموضوع بالمتلقي الذي يسعى إلى ضرورة القيام بمناسك الحج والعمرة وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وبالأخص إذا تقدم في السن، مما يجعل الأديب يتقصى هذه الذهنية ويروح يحاكيها في أدبه، من أجل إحراز التفاعل مع المتلقي الذي يلقي استحباباً منه عند الحديث عن تلك البقاع، ويمكن أن يعدّ عامل جلب وتشويق للمتلقي ليستمتع لباقي موضوعاته، وإذا كان الوجد والهيام وكذلك الشوق والحنين للمعاهد الطاهرة نابغاً من قدسيّتها، وهذه القداسة تعود فيما تعود إلى شهودها ولادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعثه ودفنه فيها، فإن ذكر الأماكن المقدسة يفترق عن المديح النبوي؛ لأن قصائده لم تنشأ في الأصل لمديح النبي - صلى الله عليه وسلم - ويلتقي في الوجد والهيام وكذلك الشوق والحنين للأماكن المقدسة مع المديح النبوي أحياناً، عند ذكره للرسول الكريم وحين يُقدّم لقصائد المديح النبوي به، فهذا الفن له علاقة بالمديح النبوي، ولكنه لا يعدّ مدحاً نبوياً خالصاً.

وقد ارتبطت فريضة الحج بالشعائر الدينية والتجليات، وأصبح الركن الخامس من الإسلام شعيرةً يطهر بها الإنسان من خطاياها، لكن الحقيقة أن الحج كان أيضاً منبراً للشعراء ومكان يأتلفه الأدباء كل عام، حتى أصبحت أسواق العرب الثلاثة عكاظ وذي مجاز أحد أشهر أعمدة التاريخ والتي من خلالها بدأت ثورة الشعر بمعلقاتٍ سبع عُلقَت على أستار الكعبة، وحازت فريضة أداء الحج باهتمام كثير من الشعراء، الذين أخذوا يكتبون قصائدهم تعبيراً عن خشوعهم، سواء في الفترة التي سبقت الإسلام أم بعده، واختلف إحساس كل شاعرٍ من الشعراء في وصف إحساسه تجاه الكعبة، والوقوف على جبل عرفات وتأدية مناسك الحج، فما إن يتواجد الشاعر على ثرى البلد الحرام تنبثق منه أعذب القصائد الشعرية الخالدة، وشواهد هذه القصائد الشعرية عن الحج في العصور المتأخرة تستعصي عن الحصر والرصد، ولكن ما يصيب المرء بالحيرة أن نماذج هذه القصائد الروحانية في الشعر العربي القديم نادرة جداً، بل تكاد تكون معدومة إلا من بعض الأبيات المفردة والمبعثرة في ديوان العرب<sup>16</sup>.

وليس من المستغرب بعد هذا المدخل أن نجد الإنتاج الشعري في العصر الجاهلي شحيح في الصور الأدبية عن الحج ومواضع النسك، على الرغم من المفارقة الكبرى لحميمية الارتباط بين شعراء ذلك الزمن وبين أرض المشاعر المقدسة. ألم تكن قصائد الشعراء تعلق على أستار الكعبة (المعلقات)، وألم يكن أغلب شعراء الجاهلية يشهدون موسم الحج كل سنة لكي يتنافسوا بينهم أيهم أجود شعراً في اجتماعاتهم الأدبية قبل أن يسيروا إلى حج البيت العتيق. فالنابغة الذبياني الخبير الشعري واللغوي كانت تعقد له قبة حمراء من أدم في سوق عكاظ، فتأتيه الشعراء وتعرض عليه أشعارها، فيفاضل بينها وبهذا كان كثير التواجد في موسم الحج، ومع ذلك لم يسجل عنه إلا أبيات عن شعيرة الحج، وقد ذكر الدكتور الرفاعي أن قصيدة "بانث سعاد وأمسي حبلها انجذما" للنابغة الذبياني قد اشتملت على أبيات كثيرة في وصف رحلة الحج للشاعر، يذكر فيها المواضع التي مر بها، ومن هذه الأبيات:

ليست من السود أعقاباً إذا انصرفتُ غراءً أكملُ منْ يمشي على قدم  
قالت: أراك أبا رَحْلٍ وراجلَةٍ حياكٍ ود، فإننا لا يحلُّ لنا<sup>17</sup>

<sup>16</sup> . الغامدي: أحمد بن حامد، " الصور الشعرية للحج وشح البدايات"، مقال منشور 2018م،

بمدونة الخيميائي على موقع: <https://alchemist71.blogspot.com>

<sup>17</sup> . الحج في الأدب العربي، دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1986م، ص28-30.

وهذا الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى الذي قال فيه ابنه كعب: "أنا ابن الذي قد عاش تسعين حجة"، فهو قد عمّر وسأم من الحياة في سن الثمانين لطولها، ومن المحتمل أنه خلال تلك السنوات- أو الحجج كما وصفها كعب- قد زار البيت الحرام حاجاً، ومع ذلك لم يرد في ديوانه هو الآخر إلا شطر بيت عن مظاهر التعبد حول الحرم، يقول:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قريشٍ وجُرحهم  
وعلى النسق نفسه سارت الخنساء عند رثائها لأخيها صخر:

حلفتُ بالبيت وزوّاره إذ يُعملون العيس نحو الحِمارِ  
لا أجزع الدهر على هالكٍ بعدك ما حنّت هواذي العشارِ

ويلاحظ أن غيرهما من فحول شعراء المعوقات لا يمكن تقصي صور الحج ومشاهد أماكن النسك في أشعارهم؛ فطرفه بن العبد قتل في ريعان الشباب، وأمرو القيس شغل بطلب الثأر والمجون، وعنترة عبد مملوك، والأعشى ربما شغلته أسفاره ورحلاته المتكررة لمدح الغساسنة والمانذرة<sup>18</sup>. أما فيما يخص الشعر في صدر الإسلام فيبدو أن الوحدة الموضوعية في القصيدة الشعرية بدعة متأخرة، بمعنى أن الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية وشهدوا بداية الدين الحنيف تأثروا بالأسلوب الشعري القديم، القائم على تعدد وتشعب المواضيع في القصيدة الواحدة، ولهذا فإن موضوع الصور الشعرية للحج لو وجد في أي قصيدة؛ فسوف يكون نصيبه أبيات محدودة فقط، وربما هذا يفسر إلى حد ما ندرة الأبيات الشعرية عن الحج في شعر حسان بن ثابت وكعب بن زهير والخنساء والنابغة الجعدي وليبد بن ربيعة، وبعد صدر الإسلام وكثرة الفتوحات تدفقت الأموال على الأمة الإسلامية، وبهذا تغيرت الحياة الاجتماعية في عهد الأمويين، وتطور الشعر وفنونه في العصر الأموي، وازدهرت الحياة الأدبية في الحجاز والجزيرة العربية، فعَمّ الترف واللهو في المدن الكبرى بينما انتشر الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب بين أهل البادية ولهذا وظّف الشعراء أجواء الحج ومشاهده لأغراض شعرية أبعد ما تكون عن الأدب، سواء في شعر المجون أم شعر المفاخرة والهجاء، فشعراء الهجاء يرون في تجمع الحجيج فرصة لتهديد خصومهم بالمفاخرة عليهم وتحقيرهم أمام الأَشهاد، فهذا الفرزدق يتوعد جريراً بقوله:

إنك لاقٍ بالمحصب من منى فخاراً فخبّرني بمن أنت فاخُرْ

<sup>18</sup> . الغامدي، "الصور الشعرية للحج وشرح البدايات"، مصدر سابق.

ورد عليه جرير ولكنه كان أحكم وأشرف في رده حيث عظم شعائر الله واكتفى بالرد بأنه سوف يفخر (بليبيك اللهم لبيك)، ومع ذلك لم يسلم جرير من تعمد هجاء الفرزدق وتوظيف اجتماع الحجاج في منى وعرفات، بل إن شعراء المجون في هذا العصر لم يجدوا في اجتماع الحجاج وتزاحمهم في أرض المشاعر إلا فرصة للفسوق والغزل، فينقل عن بعض الشعراء أنه كان يبتهج ويسعد بموسم الحج لأنه فرصته للهو:

يا حبذا الموسمُ من موفدٍ      وحبذا الكعبة من مشهدٍ  
وحبذا اللاتي يزاحمننا      عند استلام الحجر الأسودِ

وبعد أن كانت الصور الشعرية والمشاهد الأدبية عن الحج شحيحة ونادرة في قصائد الشعر الجاهلي، أصبحت هذه الصور منتشرة بشكل ملحوظ في شعر الهجاء والفخر وشعر الغزل في العصر الأموي، لكنها مع ذلك ما زالت من الأبيات ذات العدد في نسيج متشعب من المواضيع الشعرية في القصيدة الواحدة، وما أن ننتقل إلى العصر العباسي نجد بعض النماذج، ومن ذلك قصيدة خاصة بالحج تنسب إلى الشاعر أبي نواس يقول فيها:

إلهنا ما أعدلك      مليك كل من ملك  
لبيك قد لببت لك      لبيك إن الحمد لك

وزاد في هذا العصر بعض الخبث الذي صدر من بعض الحجاج نحو النساء والجواري؛ ما جعل أبو العلاء المعري يدفع إلى إسقاط فرضية الحج عن النساء بقوله:

أقيمي لا أعدُّ الحجَ فرضاً      على النساء ولا العذارى  
ففي بطحاء مكة شرَّ قوم      وليسوا بالحماة ولا الغيارى  
ويعدُّ أبو العتاهية أيقونة شعر الزهد والروحانيات، وهو أيضاً ممن حج البيت العتيق، وعلى الرغم من عاطفته المتوقدة، إلا أن انعكاس أرض المشاعر وشعائر الحج في ديوانه لا يتجاوز بيتاً من الشعر، وهو قوله:

وأما ورب المسجدين كلاهما      وأما ورب منى والراقصات

كما ظهر في هذا العصر تجديد شعري آخر في أدب رحلة الحج لم يكن منتشرًا قديماً، وهذا التجديد يتعلق بالتوصيف التفصيلي لما يحدث مع الشاعر أثناء تأديته لمناسك الحج، وأقدم الأبيات في هذا الأمر - كما يذكر الباحثون - هي سبعة أبيات ضمن مقصورة ابن دريد يصف فيها مراحل أدائه للحج والعمرة، والتنقل بين المشاعر المقدسة، كما توجد قصيدة روحانية وفلسفية لجلال الدين الرومي عنوانها

(آه أيها الذاهب للحج)<sup>19</sup>. وفي عصر آخر وهو القرن السابع الهجري، يهيم ابن دقيق العيد شوقاً بمناسك الحج، ويصف مشاعره الفياضة التي اعتملت في صدره لحظة وصوله إلى أرض الحجاز، فيقول:

تهيمُ نفسي طرباً      عندما استلمحُ البرقَ الحجازيا  
وللعلامة ابن رشيد البغدادي القصيدة المسماة "الروضة الذهبية في الحجة  
المكية والزورة المحمدية"، وهي قصيدة في الحج، ويقول في مطلعها<sup>20</sup>:

أَيَا عَدَبَاتِ الْبَانَ مِنْ أَيْمَنِ الْحَمَى      رعى الله عَيْشًا فِي رُبَاكَ قَطَعْنَاهُ  
ومنها قصيدة للشاعر ابن معصوم، يقول في مطلعها:

يا حاديَ الظعنِ إنْ جُزِتِ المواقيتا      فحي من يمني والخيْفِ حُبَيْتَا  
ومنذ مطلع القرن الثامن الهجري يمكن تتبع بداية ظهور ما يمكن وصفه (بالمطولات الشعرية) عن أدب الحج، من ذلك قصيدة لابن القيم الجوزية، وهي قصيدة وعظية اشتهرت باسم "رحلة إلى بلاد الأشواق".

وإذا كان جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تنبض قلوبهم بحب البقاع المقدسة؛ فإن للأندلسيين والمغاربة وضعهم التاريخي والجغرافي الذي يجعل تعلقهم بتلك البقاع أكثر تميزاً، وأكثر حرارة من الآخرين؛ فالأندلسيون يشعرون بأنهم أبعد من غيرهم عن مركز العالم الإسلامي. وقد جمعت الظروف التاريخية بين الأندلسيين والمغاربة في الكثير من الأحيان، كما قربت بينهما الجغرافيا، ولذلك فإنهم يشتركون في الكثير من ملامح هذا الغرض الأدبي؛ الذي ظهر عندهم في العديد من المناسبات كما ظهر من خلال الرحلات التي كان المغاربة والأندلسيون يحرصون على تدوينها، بعد عودتهم من البقاع المقدسة، ومن نظم المغاربة قول الشاعر ابن الطيب الفاسي دفين المدينة:

يا كعبةَ الله كم من عاشق قتلا      شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا<sup>21</sup>  
ولو تحدّثنا عن الحج في الشعر الحديث عند أولئك الذين رزقهم الله موهبة التعبير عن مكنون أنفسهم بالشعر، فإنهم - كمن سبقهم - لم يقفوا جامدين أمام

<sup>19</sup> . الغامدي، "الصور الشعرية للحج وشرح البدايات"، مصدر سابق.

<sup>20</sup> . ابن رشيد البغدادي: محمد بن أبي بكر، القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية، تح: محمد بن اسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، مصر، ط3، 2006م، ص13.

<sup>21</sup> . ابن سلامة: الربيعي، "الشوق والحنين الى البقاع المقدسة في الشعر الأندلسي والمغربي"،

مقال منشور 2018م، على موقع: <https://www.tunisia-sat.com>

حظهم من ذلك الهوى القلبي، فترجموه بشعرهم، وعبروا عنه في قصائدهم، فكان من وراء ذلك فيض من الشعر، لو تتبعناه في دواوينهم لوجدنا من وراء هذا رصيِّداً كبيراً جديراً بالدراسة والنظر، وقد برزت أسماء كثيرة من الشعراء الذين تناولوا وصف رحلة الحج في قصائدهم، فكان للشاعر أحمد شوقي قصيدتان بديعتان، يقول في مطلع إحداها:

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله في عرفات  
ويبدو أنه تكرر في التاريخ انتهاك حرمة الحجاج والاعتداء على أرواحهم  
ونسائهم، وهذا ما سبب نظم قصيدة الهجاء التي خص بها أحمد شوقي " الشريف  
حسين" عندما تفلت الأمن في زمن حكمه:

ضجَّ الحجاج وضجَّ البيت والحرمُ واستصرخت ربَّها في مكة الأمم  
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا إن أنت لم تنتقم فالله منتقم<sup>22</sup>  
ويتغنّى الشاعر عمر بهاء الدين الأميري بالكعبة ومكانتها، ويلفت النظر  
إلى أن قدسيته ليست في أحجارها، وليست في التثبيت بأستارها، يقول الأميري:  
الكعبة الشَّماء في مذهبي قيمتها ليست بأحجارها  
والقرب من خالقها ليس في تشبث المرء بأستارها  
كما لهج الشاعر علي ( أحمد باكثير) بتحية البيت الحرام حباً وإقبالاً  
وامتثالاً، وانطلق من مدينة القاهرة إلى مكة، في رحلة لقضاء فريضة الحج،  
يقول<sup>23</sup>:

طف بي بمكة إني هدني تعبي واترك عناني فإني ها هنا أرب  
وفي مقابل قلة البدايات في العصور المتقدمة لقصائد الحج، نجد أن  
(شاعر الحج) الأديب المكي المعاصر أحمد إبراهيم الغزالي، تضمنت مجموعته  
الشعرية حوالي ثمانين قصيدة عن الحج، توصف أحيانا بالحواليات حيث ألقيت  
أغلبها في المناسبات الرسمية أمام الملوك في الاحتفال السنوي، الذي تحضره وفود  
الحجاج في " منى". في حين أن الشاعر أحمد قنديل أصدر مجموعة شعرية تحمل  
عنوان "مكتي قبلتي"، ضمَّنها عشرات القصائد من نظمه ومن نظم غيره<sup>24</sup>.

<sup>22</sup>. أبو كريشة: طه مصطفى، " من وحي الحج في الشعر الإسلامي الحديث"، مقال

منشور 2014م، على موقع: <https://www.daleelalmasjed.com>

<sup>23</sup>. خليل: محمد محمود، " رحلة الحج في عيون الشعراء"، مقال منشور على شبكة الألوكة،

2012م. <https://www.alukah.net>

<sup>24</sup>. الغامدي، " الصور الشعرية للحج وشح البدايات"، مصدر سابق.

## رحلة الحج وشعر المناسبات:

وردت في كتب الأدب والنقد كثير من التعاريف لشعر المناسبات، فقد قال عنه الشاعر الألماني غوته: بأنه الشعر العظيم، وهو الأكثر أصالة بين صنوف الشعر الأخرى، وقد حظي باهتمام كبير من النقاد والباحثين، ويقصد به: "الشعر المقترن بمناسبة ما، قد تكون مناسبة دينية أو وطنية أو قومية بحيث يكون له معنى ومدلول ومغزى خاص، وغالباً ما يظهر في مناسبات كالأعياد والزواج وغيرها"<sup>25</sup>. ومنذ الفترة الأدبية الموصوفة بعصر الجمود والخمول - والتي يعترض الباحث والدكتور فروخ على توصيفها بعصر الانحطاط<sup>26</sup> - تدهورت جودة الشعر العربي وربما من ضمن أسباب ذلك ظهور ما يُسمّى بـ(شعر المناسبات). فأهم ركيزة في الشعر العاطفة الصادقة، وهذا ما تفنّده القصائد والأشعار التي تقال فقط كنوع من (أداء الواجب) لحلول مناسبة معينة. ومعظم قصائد المناسبات الدينية أو الوطنية أو القومية أو الاجتماعية سرعان ما تتلاشى من الذاكرة بانتهاء المناسبة، فقصيدة(البردة) مثلاً والتي قيلت في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - للبوصيري، وهي قصيدة كتب لها الذبوع والخلود، ولكن نتيجة لأن البوصيري أوقف شعره في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وألزم نفسه أن يكتب قصيدة في كل موعد ذكرى للمولد النبوي الشريف، ولكن خفت جذوة شعر المناسبات هذه، كما خفت وتلاشت عشرات القصائد للشاعر أحمد الغزاوي التي ألقاها في موسم الحج، ولهذا نجد أن بعض الشعراء ومن دافع التقليد يكون مأسور بشعر المناسبات، ويندفع أحياناً بغير شعور لكتابة قصائد قد ينقصها الروح أو العاطفة الصادقة، وربما هذا يفسر الظاهرة العجيبة والتي بدت في منتصف القرن الماضي عندما كتب بعض الشعراء من المسيحيين العرب عدداً من القصائد عن مكة المكرمة والكعبة ومشاعر الحج<sup>27</sup>. ولعل شعر المناسبات يُعد قضية جدلية لدى البعض؛ فيرى بعض النقاد ضالة مكانته وربما عدّه من النظم لا الشعر، في الوقت الذي يراه بعضهم الآخر أنه من عيون الشعر، وما يراه البحث أن "المناسبة" بمنزلة الغرض الأدبي، كالمدح والهجاء والفخر والثناء والغزل والحكمة وغيرها من أغراض الشعر، وليست المناسبة في حد ذاتها مطعناً على القصيدة التي قيلت

25 . الخير: هاني، أحمد شوقي؛ شاعر الأمراء وأمير الشعراء، دار رسلان، القاهرة، 2017م،

ص13.

26 . تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط5، 1989م، ج3، ص8.

27 . ينظر: الغامدي، "الصور الشعرية للحج وشح البدايات"، مصدر سابق.



فيها، فالقصيدة التي تُكتب لأجل المناسبة كأيّة قصيدة تُكتب في أي غرض أدبي، جيدها جيدٌ ورتبها رديءٌ، فهل لنا أن نقول إن قصيدة مدحية جيدة ابتداءً؛ لأنها نُظمت في المدح، وهل لنا أن نقول إن قصيدة هجائية رديئة ابتداءً؛ لأنها نُظمت في الهجاء، فإطلاق الأحكام-على العموم- لا يصح، فجودة الشعر ورداءته تعود إلى معالجة الشاعر للمناسبة، ولا يمكن إغفال المناسبة كباعث وراء إنشاء النص<sup>28</sup>، وقد ذهب بعض الباحثين إلى تشبيه شعر المناسبات من هذه الزاوية بشعر المعارضات، فالقصيدة الأولى تعدُّ النموذج أو المثال، وبمماراتها أو معارضتها- حيث كانت الباعث- قد تتميز الثانية على الأولى، وقد تروج الجديدة عن القديمة لدى النقاد والقراء، وشعر المناسبات يُكتب بخصوص مناسبة محددة، لها عمق تاريخي أو بعد اجتماعي أو ظل أدبي؛ لأجل تذكُّرها والاحتفاء بها وإحيائها لدى الأجيال المتعاقبة، وقد تكون المناسبة محلية أو محدودة بالبيئة، وقد تتسع لتشمل الوطن أو الإقليم، وقد تمتد لتصير على مستوى أمة- كمناسبة الحج وزيارة البقاع المقدسة- مما يعزز فكرة الانتماء أو إعلاء القيمة.

**تحليل قصائد الحج والزيارة:**

ما يزالُ الذاهبونَ إلى الديار المقدسة والمغادرونَ يُعبرون عن إحساسهم بالمكان بأعظم ما عرفَ الإنسانُ من معاني الحبِّ والعاطفةِ والوجدِ والهيامِ والإجلالِ، وقد أمدت شعيرة الحج الشعراء بفيوضات ثقافية وروحية وعلمية، وبعضُ الشعراء استطاعَ أن ينتج معطىً فنياً فاعلاً، يوظفُ الصورَ الشعريةَ في إبرازِ حقول دلالية حضارية ودينية وتاريخية، ولا عجب أن يحتفي الشعُرُ ببلاد الحرمين، وأن يسجلَ الشعراءُ أجودَ ما قيل في مكة والحرم؛ فمكة مهوى الأقدمة منذ دعا سيدنا إبراهيم الخليل- عليه السلام- ربه بقوله: " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" (سورة إبراهيم: 37). وتتميز قصائد الرحلة إلى الديار المقدسة بطولها الذي يسمح أو يتيح للشاعر أن يتطرق فيها إلى موضوعات كثيرة تتصل كلها بالغرض أو الموضوع الأساسي، وهي تتمثل تمثلاً جميلاً للثقافة والحضارة الإسلامية في امتدادها عبر الزمان والمكان، إذ تتجلى فيها حياة الناس وأحوالهم عبر العصور، ويتجسد فيها عالمٌ متنوعٌ متعدد من الأندلس إلى الصين عبر مصر والعراق وبلاد ما وراء النهر، ويوثق في بعضها كل ما يخص الحج من بداية الاستعداد للرحلة إلى العودة منها، و يبدأ الأمر

28 . سليمان: أحمد تمام، "رأى في شعر المناسبات"، مقال منشور في المجلة، ع89، 2022م،

بساد الديون وإرجاع الحقوق لأصحابها، ثم يكون إعداد الزاد، وهذا من الأمور الضرورية لطول المدة التي كانت تقتضيها الرحلة<sup>29</sup>، وكان أهل ديار الحاج يخرجون لتوديع قافلة الحجاج بأهازيج تترجم شوقهم إلى الأرض الطاهرة، وداعاً يترك في القلب لهفةً وفي العين دموعاً؛ إذ كان في الوداع قليل من أمل في العودة، فالذاهب مفقود والعائد مولود. والمدة القياسية العادية للحج - حسب الرحالة العياشي وهو أكثر من اهتم بالتواريخ - ثمانية أشهر لمن كانت دياره بعيدة عن البقاع المقدسة، وقد تصل إلى سنة بل سنتين لمن ضاع به الطريق ووصل متأخراً عن الحج، فمكث في مكة ينتظر الموسم القادم دون معرفة الأهل عنه من موت أو حياة. أما من رام طلب العلم مع الحج فلا أجل لعودته إلا أن يدرك الغاية، ولهذا يصعب ضبط المدة التي كان الحجاج يقضونها في حجهم، وبالأخص أهل الديار البعيدة عن بلاد الحرمين. أما الطرق فلم تكن آمنة بسبب الحروب وانفلات الأمن. ولقد أسقط الفقهاء فريضة الحج لفترات؛ لما ترتبت عليها من مفاسد<sup>30</sup>. وقد كان يحملهم الشوق إلى أم القرى على أجنحته، فيُنسيهم حرارة الشمس الحارقة والمخاطر المتوقعة، فتشدد عزائمهم، وكلما زادت المشقة زادت المتعة وكلما زاد البعد زاد الشوق إذا ذكرت مكة وزمزم والمقام والمحصب من منى والحطيم، والبقاع التي عانقت فيها الأرض السماء، كأنك لست راحلاً بل عائداً إلى منزل لك في الأصل به كان الميلاد وإليه المنتهى، أو كانت روحك تسكنه أو طافت به لمئات المرات؛ فهي رحلة الروح قبل الجسد، وهناك من الشعراء من وثق مسار الرحلة وما لقيه فيها، واصفاً الأمكنة وما جرى فيها، والأشخاص الذين التقاهم، مثل الشيخ عبد الودود ولد سيدي عبد الله الذي حج في 1924م حيث يقول:

حتى وصلنا بالضحى (الأبيض) وقل جسم عندنا لم يمرضاً  
والكل من أكبرنا والأصغر قد فصدوه في الذراع الأيسر<sup>31</sup>

<sup>29</sup> . بابكر: عماد محمد، "الحج في شعر المديح السوداني"، مقال منشور في: 2022م، على

موقع: <https://www.aljazeera.net>

<sup>30</sup> . أبجيط،: سعيد، "رحلة المغاربة إلى الحج"، مقال منشور في " 2019م، على موقع:

<https://makkawi.info>

<sup>31</sup> . بابكر: عماد محمد، "طريق الحج الأفريقي بأرض السودان"، مقال منشور في: 2023م، على

موقع: <https://www.aljazeera.net>

فإذا قضى الحجاج مناسكهم، ورجعوا إلى ديارهم، لم تجدهم إلا مشتاقين إلى تلك الأماكن التي فارقوها، يقول عبدالصمد بن عساكر:

كيف جانبها وأنت محبٌ هل محبٌ رأيته ذا اجتنابٍ

ويستهل بعض الشعراء قصائدهم بإعلان شوقهم إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- فيفيضون في وصف مشاعرهم لزيارة قبره، ويعبرون عن رغبتهم في أن يُقْتَطِفُوا ثَمَارَ القُرْب، وَيَتَقَيَّؤُوا تلك الظلال الوارفة، ويتوسلون إلى ذلك بأساليب العشاق من المتصوفة وشعراء الغزل<sup>32</sup>، وتجد صاحبها يعبر بها عما يمكنه فؤاده في قالب شعري فتارة يتغزل في حبيبته، وثانية يتمدح بصنيع عشيرته، وذلك يصف الروابي الخضر المظلة على سفوح الجبال بأرعة الجمال، ورابع يبكي المعالم الدارسة والأطلال الذاهبة، ومن ذلك قول ابن رشيد البغدادي<sup>33</sup>:

وَنَحْنُ لِجِيزَانَ الْمُحَصَّبِ جِبْرَةٌ نُوْقِي لَهُمْ حُسْنَ الْوَدَادِ وَنَزَعَاهُ  
وَنَحْلُو بِمَنْ نَهْوَى إِذَا رَقَدَ الْوَرَى وَيَجْلُو عَلَيْنَا مَنْ نُحِبُّ مُحْيَاهُ

ويلاحظ أن الشعراء يستفتحون قصائدهم بمقدمة غزلية مهذبة تفصح عن شدة تعلقهم بالأماكن المقدسة، كما أنهم يتلمسون النسيم الذي يهب من تلك البقاع، فهو نسيم خاص يتميز بالديمومة والطواف بكل أرجاء المعمورة، ولا يجد ريحه إلا المحبون العاشقون للبلد الحرام، وما زاد النسيم بهاءً وعبقاً تمازجه مع ريح الصبا الذي ينبعث من باب الكعبة المشرفة، فيؤجج العواطف ويعمق الشعور، وينقل المؤمنين العاشقين إلى رحاب الأماكن المقدسة، فهم يقصدون المكان، ويفارقون الأحباب والأوطان قاصدين خالقهم، الذي يجزي خير الجزاء، يقول ابن رشيد البغدادي:

وَتَسْرَحُ فِيهِ الْعَيْسُ بَيْنَ ثَمَامَةٍ وَتَسْتَنْشِقُ الْأَزْوَاحُ نَشْرَ حُرَامَاهُ  
وَتَشْكُو إِلَى أَحْبَابِنَا طَوْلَ شَوْقِنَا إِلَيْهِمْ وَمَادَا بِالْفِرَاقِ لَقِينَاهُ<sup>34</sup>

وأما المشاعر فقد جاشت ليصف صاحبها رحلة العمر، تلك الرحلة التي تذكر بالرحيل إلى الدار الآخرة، الرحلة إلى البلد العتيق الذي يقصده الحجيج من

<sup>32</sup> . المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1939م، ج4، ص11، 20، 23، 33، 79.

<sup>33</sup> . القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية، تح: محمد بن اسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، مصر، ط3، 2006م، ص16.

<sup>34</sup> . المصدر نفسه، ص19، 20.

كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ" ينقاطر منهم الوجد بتلك الديار فتتلقفها قرائحهم التي تبوح بما تكنه صدورهم من مشاعر، فيعرضون قصائدهم ويسجلون فيها طريق رحلتهم، وتأملاتهم في يوم المباهاة- يوم عرفة- فتفوح منها صدق العبارة، وتأسر قارئها براعة السبك، وتتأسق رفيع الجدارة، ومن بديع ما ذكر عن الوقوف بعرفة قول ابن رشيد البغدادي في (القصيدة الذهبية)<sup>35</sup>:

وَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الدُّمُوعَ الَّتِي جَزَتْ وَطُولَ خُشُوعٍ مَعَ خُضُوعٍ حَصَّعْنَاهُ  
تَجَلَّى عَلَيْنَا بِالْمَتَابِ وَبِالرِّضَى وَبَاهَى بِنَا الْأُمْلَاكَ حِينَ وَقَفْنَاهُ

وقد تحولت قصائدهم إلى منجز إبداعى يحيل الزمن التاريخي إلى مشاهد حية تمشي على رجلين، فيمكن التحديق عبره في آفاق من امتدادات الزمان والمكان، وقد استخدم الشعراء من الناحية الفنية لغة بيانية تمثلت في الصورة الشعرية؛ ولا عجب فلغة الشعر لغة تعتمد الوصف، وغالباً ما يتحرى الشعراء الدقة في الوصف، كما امتاز شعر رحلة الحج باختلاطه بالمشاعر الجياشة والعواطف الدافئة الصادقة، ونجد ذلك في قول باكثير الحضرمي:

هنا أمرغ خدي صبوة وجوى فتتهف الحور بشرى خذك الترب  
فإن رأيت دموعي أنبتت حجراً فتلك مني دموع الفرحة العجب  
وامتازت اللغة بالوضوح وكثر فيها التكرار ومثاله قول أحدهم:

خذوني خذوني إلى المسجد خذوني إلى الحجر الأسود  
خذوني إلى زمزم علها تبرّد من جوفي الموقد

كما استخدم الشعراء ألوان البديع كالجناس من مثل قول العياشي:

كل المنى بمنى إذا ما جنّتها تكفي النقم  
أكرم به من منزل فإليه تجتمع الأمم

ومن الجناس الناقص قول القاضي عياض:

لولا العوادي والأعادي زُرْتُهَا أَبَدًا ولو سَحَبًا على الوَجَنَاتِ

ويعلق المقري بعد ذكره لهذا البيت بقوله: "فجعل العوادي والأعادي تصدّ عن زيارة الحبيب المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، والحبيب إذا تمكّنت محبته من القلب لا يصدّ عن زيارته شيء، ولو أتى ذلك على هلاك نفسه"، ثم أردف المقري قائلاً: ألا قال عياض كما قال ابن رشيد السبتى<sup>36</sup>:

هو القصدُ إذ غنّت بنجدِ حداثنا وإلا فما نجدُ وبدراً وريّاه

35 . المصدر السابق، ص 47، 48.

36 . أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج 4، ص 183.

وَتَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْأَسِنَّةَ أَشْرَعَتْ وَقَامَتْ حُرُوبٌ دُونَهُ مَا تَرَكْنَاهُ  
ومن الاستعارات البديعة قول ابن رشيد البغدادي<sup>37</sup>:  
لَبِسْنَا دُرُوعًا مِنْ خُضُوعٍ لِرَبِّنَا وَمَا كَانَ مِنْ دِرْعِ الْمَعَاصِي خَلْعَانَهُ  
وقول ابن القيم:

فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ عِبْرَةٍ مُهْرَاقَةٍ وَأُخْرَى عَلَى آثَارِهَا لَا تَقْدَمُ  
وَقَدْ شَرَقَتْ عَيْنُ الْمُحِبِّ بِدَمْعِهَا فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدَّمُوعِ وَيُسْجِمُ  
ويقول أيضاً في تعظيم الكعبة بأسلوب الكناية وحسن التعليل:  
كَسَاهُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَعْظَمَ حُلَةٍ عَلَيْهَا طِرَازٌ بِالْمَلَاخَةِ مُعَلِّمٌ  
فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلِّ الْقُلُوبِ نُحِبُّهُ وَتَخَضَعُ إِجْلَالًا لَهُ وَتُعْظِمُ  
ومن بلاغة معاني أسلوب الأمر قول ابن رشيد البغدادي<sup>38</sup>:

عَلَيَّ الْجَزَا مِنْي الْمَثُوبَةُ وَالرَّضَى تَوَائِكُمْ يَوْمَ الْجَزَا أَتَوَلَّاهُ  
فَطَبِيبُوا سُرُورًا وَأَفْرَحُوا وَتَبَاشَرُوا وَتَيَّهُوا وَهَيِّمُوا بَابَنَا قَدْ فَتَحْنَاهُ  
وفي هذه الأبيات نجد الشاعر متأثراً بطريقة الصوفية، ويتضح ذلك من  
خلال استعمال بعض تعابيرهم واصطلاحاتهم مثل الهيام، ولعل ذلك "جرباً على  
مذهب ابن عربي الذي كان مهيمناً- في ذلك الوقت - على الشرق والغرب"<sup>39</sup>.  
وقد ذكر البحث نقلاً من قصائدهم وأشعارهم لئلا يطول بنا المقام ويكثر  
المقال، ونختم بالقول: إن رحلة الحج كانت- ومازالت- تمثل تبتلاً ورهبانية وإثراءً  
أعطت للحج معنىً، وصيرته مدرسة ومرجعية لباب من أبواب المعرفة، وتحفة  
نادرة يزيد جمالها كلما تقادم عليها الزمن، ولم يكن مجرد فريضة يُختزل في إحرام  
وطواف وسعي، ويُتاب على فعلها ويعاقب على تركها من استطاعها.

### الخاتمة:

1- إن عددًا كبيرًا من العلماء والفقهاء والأدباء كتبوا عن مكة والمدينة في  
رحلاتٍ ووصفوها وصفًا جغرافيًا، بعضها سردٌ تعليمي، وبعضها الآخر قصصٌ  
وأخبار، ولكنَّ الشعراء حين أقبلوا بقلوبهم إلى ظلِّ الحرم، وخلعوا حجب المشاعل،  
أنتجوا آثارًا جميلةً، تعيدنا إلى الجذور الروحية والهوية الأصيلة، وهذه وظيفة  
الشعر فهي تعدُّ تهذيبًا للنفوس وإنعاشًا للقلوب وتحفيزًا لها على جلائل الأعمال.

<sup>37</sup>. القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية، ص33.

<sup>38</sup>. المصدر السابق، ص42.

<sup>39</sup> الجارري: عباس، الأدب المغربي، من خلال ظواهره وقضاياها، مكتبة المعارف، الرباط، ط2،

2- إن فكرة وصف الرحلة لم تظل حبيسة الشعر العربي القديم، بل انتقلت عدواها الطبية إلى مراحلها التاريخية المتعاقبة، لتلوح لنا في صور شتى بأساليب متنوعة، تسلك كل واحدة منها طريقاً إبداعية مميزة.

3- إن المناسبة تعدّ أصلاً وسبباً في الإبداع؛ فليس هناك عمل إبداعي دون مناسبة تخلقه أو تعمل على إنتاجه، يستوي في ذلك الكاتب والشاعر والرسام وغيرهم، كما تستوي في ذلك كل الفنون؛ فجميعها نتاج المواقف التي هي صلب المناسبات، ولعل الشعر أكثر الفنون التي تلفت الانتباه إلى وجود المناسبة.

4- تحدث الشعراء بتميز عن رحلة الحج، وحاولوا إيضاح أسرار الحج وآثاره على النفوس المؤمنة، وقد اعتنى بعض الشعراء بوصف الركب مُدْ تأهبه للمسير، راصداً ما ينتاب الحجاج من أحاسيس، وقد تحقق حلماً طالما راودهم، فها هي ربوع بلاد الحرمين ومعالمها تطل من بعيد مثيرة السرور والفرح في نفوس الركب، وها هي مواطن الوحي ومنازله، وتلك مواطئ خير من وطئ الثرى، فراحوا يتفقّدون بأعينهم كل مكان في تلك البقاع.

5- أفضى الشعراء في قصائدهم ببنية وجمالية تعبيرية بحبهم لتلك البقاع وللنبي - صلى الله عليه وسلم - ومقامه وروضته الشريفة، مسخرين لغة شعرية تدرت بالمعاني الروحية، فتكاثفت دلالاتها وتضاعفت معانيها.

6- إن الشعراء قد يختلفون - كغيرهم من الناس - في درجة الإحساس وردود الفعل والتأثر، ويتفاوتون في سرعة التعبير وقوة الخيال كما يختلفون في أجسامهم وعقولهم، ذلك من الحقائق المسلّم بها؛ ولذلك تتفاوت قصائدهم في درجة الإبداع، ولكن يمكن القول بأنه: كان يجمعهم غرض عام عرف به بعضهم، وتميزوا به عن غيرهم، وهذا الغرض هو الوجد والهيام بالأماكن المقدسة لمن تمكن منهم زيارتها وأداء فريضة الحج، وكذلك غرض الشوق والحنين لمن لم يستطع أداء فريضة الحج، وهناك من الشعراء من جمع بين الغرضين في شعره، فنراه أثناء الزيارة عاشقاً هانماً، وعند الانتهاء من أداء الفريضة والعودة إلى الديار محنّ ومشتاق.

7- إن النماذج الشعرية التي تمّ استعراضها في البحث لا تمثل كل شعر أو أدب الرحلة إلى البقاع المقدسة؛ ولكنها كافية لإعطائنا فكرة موجزة عن هذا الموضوع.

### التوصيات:

يُشكّل أدب الرحلة بشكل عام والرحلة إلى البقاع المقدسة بصفة خاصة ظاهرة بارزة في الأدب العربي، ولايزال البحث فيه بكراً في كثير من موضوعاته، وترى الباحثة أنه من الواجب توجيه الباحثين إلى دراسته وسير أغواره.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: الكتب

- القرآن الكريم.
- ابن بطوطة: محمد بن عبدالله، رحلة ابن بطوطة المسمّاة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، دار الشرق العربي.
- الجراري: عباس، الأدب المغربي، من خلال ظواهره وقضاياها، مكتبة المعارف، الرياض، ط2.
- الحجري: إبراهيم، الخطاب والمعرفة؛ الرحلة من منظور السرديات الإنثروبولوجية، المركز الثقافي العربي، 2018م.
- حليفي: شعيب، الرحلة في الأدب العربي : التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2002م.
- الخواجي: مجدي بن محمد، الشعر في مكة المكرمة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 2002م.
- الخير: هاني، أحمد شوقي ؛ شاعر الأمراء وأمير الشعراء، دار رسلان، القاهرة، 2017م.
- ابن رشيد البغدادي: محمد بن أبي بكر، القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية، تح: محمد بن اسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، مصر، ط3، 2006م.
- الرفاعي: عبدالعزيز أحمد، الحج في الأدب العربي، دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1986م.
- ضيف: شوقي، الرحلات، دار المعارف، مصر، ط4
- فروخ: عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط5، 1989م.
- المقري: شهاب الدين أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1939م.
- ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

### ثانياً: المقالات.

- أبجيط: سعيد، "رحلة المغاربة إلى الحج"، مقال منشور في: 2019م، على: <https://makkawi.inf>

- بابكر: عماد محمد، "الحج في شعر المديح السوداني"، مقال منشور في 2022م، على: <https://www.aljazeera.net>
- بابكر: محمد عماد، "طريق الحج الأفريقي بأرض السودان"، مقال منشور 2023م، على: <https://www.aljazeera.net>
- الحديدي: محمود، "النصّ الرحلي"، نافذة المهمين، 2019م، على موقع: <https://www.facebook.com/photo.php>
- خليل: محمد محمود، "رحلة الحج في عيون الشعراء"، مقال منشور 2012م على شبكة الألوكة: <https://www.alukah.net>
- ابن سلامة: الربيعي، "الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة في الشعر الأندلسي والمغربي"، مقال منشور في 2018م، على: <https://www.tunisia-sat.com>
- سليمان: أحمد تمام، "رأيي في شعر المناسبات"، مقال منشور في المجلة، ع89، 2022م، على: <https://hiragate.com>
- السيد: السيد رمضان، "وصف الرحلة.. إبداعات شعرية خلّدتها الدواوين"، مقال منشور في (2018م) مجلة <https://www.albayan.ae> "البيان"، على موقع: <https://islamonline.net>
- عاشور: مصطفى، "الحج في أدب الرحلات"، مقال منشور على موقع: العساف: أحمد، "رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين"، مقال منشور في مجلة "البيان" العدد: 280، 2010م، على موقع: <https://www.albayan.co.uk>
- الغامدي: أحمد بن حامد، "الصور الشعرية للحج وشح البدايات"، مقال منشور 2018م، بمدونة الخيميائي على: <https://alchemist71.blogspot.com>
- قادا: عبدالعالي، الإقناع بالعواطف في الرحلة الكولونيلية رحلة "إتيان ريشي" إلى المغرب أنموذجاً، مقال منشور في مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ع70، ص25، على موقع: <https://jilrc.com>
- أبو كريشة: طه مصطفى، "من وحي الحج في الشعر الإسلامي الحديث"، مقال منشور في: 2014م، على: <https://www.daleelalmasjed.com>
- الهدوي: علاء الدين محمد، "الحج في أدب الرحلات ومكانته في خارطة البحث العلمي"، دراسة منشورة في 2021م، على موقع البعث الإسلامي: <https://albasulislami.com>